غفلة وعلاج

الغفلة وآثارها الضارة

فضيلة الشيخ أحمد بن طالب
إمام وخطيب المسجد النبوي

الحمد لله الذي يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، تقدست أسماؤه وجلت صفاته، لا إله إلا هو الحكيم الخبير، أحيا القلوب بالقرآن والمواعظ، والحكمة والعمل الصالح المشكور، ووكل المعرض عن الحق إلى نفسه فهو في خسران وغفلة وغرور، أحمد ربي على نعمه كلها، وأشكره على فضله الكبير .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له السميع البصير، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمدا عبده ورسوله البشير النذير، والسّراج المنير، اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، القدوة لكل مؤمن بدينه بصير.

أما بعد:

فاتقوا الله بفعل كل عمل يرضاه، والبعد عن كل عمل يبغضه ويأباه؛ فتقوى الله سعادة الدينا، والفوز بجنة الخلد في الأخرى، فطوبى لمن تمسك بها، وويل لمن جانبها فلم يعمل بها.

عباد الله: أصلحوا قلوبكم بما يصلح القلوب، وراقبوها من الواردات عليها المفسدة للقلوب، فالقلب ملك الجوارح، كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم -: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» (رواه البخاري ومسلم من حديث النُعمان بن بشير – رضي عنه –).

وهل تعلمون أعظم أمراض القلوب التي يحرم من ابتلي بها من الخير كله؟ أو

يحرم من ابتلي بها من كثير من أبواب الخير؟

ألا إنّ أعظم أمراض القلوب: هي الغفلة، فالغفلة المستحكمة هي التي شقي بها الكفار والمنافقون، وهي التي أوجبت لهم الخلود في النار، قال الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٨].

وقد تكون الغفلة من المسلم عن بعض أعمال الخير، وعن الأخذ بأسباب المنافع والنجاة من الشرور، فيفوته من ثواب الخير بقدر ما أصابه من الغفلة، ويعاقب بالمكروهات والشر بقدر غفلته بترك أسباب النجاة.

قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩-٤١].

وقال - ﷺ -: «لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله، وإن دخلوا الجنة». (رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري)

وقال تعالى في عقوبة الغفلة عن الأخذ بأسباب النجاة: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

والعفو هنا للمسلم وليس للكافر؛ لأن الكافر لا يعفى ذنبه إلا بالتوبة. الغفلة هي: عدم إرادة الخير قصدا، وعدم محبيه مع خلو القلب من العلم النافع، والعمل الصالح، وهذه هي الغفلة

التامة المهلكة، وهي غفلة الكفار والمنافقين، التي لا يفلح المرء معها إلا بالتوبة إلى الله.

ولا يتبع الإنسان - إذا استولت عليه - إلا الظن وما تهواه نفسه، ويزينه له شيطانه، ويحبه هواه من الشهوات. وهذه الغفلة هي التي عاقب الله بها الكفار والمنافقين في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٥-١٣٦].

وقال عن المنافقين: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال سبحانه -: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:«إذا دخل أهل الجنة الجنة، ودخل أهل النار النار، يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة! فيشرئبّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ويقول: يا أهل النار! فيشرئبّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة! خلود بلا موت، ويا أهل النار! خلود بلا موت»، وقرأ هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩] (رواه البخاري ومسلم).

وفي بعض الروايات: «فلولا أنّ الله كتب الحياة لأهل الجنة، لماتوا فرحا، ولولا أنّ الله كتب الحياة لأهل النّار،

لماتوا حزنًا وحسرة».

ومعنى قوله تعالى: «وهم في غفلة» أي: في الدنيا؛ إذ الآخرة لا غفلة فيها. فغفلة الكفار والمنافقين غفلة مستحكمة تامة، تخلّد صاحبها في النار، وهي عدم إرادة الخير قصدا، وعدم محبته، وخلو القلب من العلم النافع والعمل الصالح، مع اتباع الهوى. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال أهل التفسير: "ولا تطع من جعلنا قلبه غافلاً عن القرآن والإسلام، وكان أمره ضياعا وباطلاً".

وأما غفلة المسلم، فهي غفلة عن بعض الأعمال الصالحة التي لا يضاد تركها إسلامه، أو الوقوع في بعض المعاصي التي لا تكفر، والغفلة عن عقوباتها.

والغفلة من المسلم شرّ عليه كبيرٌ، وضررٌ خطيرٌ، تورده المهالك، وتسدّ عليه من الخير مسالك.

وللغفلة مضارٌ كثيرةٌ، وشرورٌ مستطيرةٌ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال - عز وجل -: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وبالغفلة عن معرفة كمال التوحيد يقع المسلم في نقص كمال التوحيد، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وبالغفلة عن تعلّم أركان الصلاة وواجباتها يقع الخلل في الصلاة، كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -، أنّ النبي – صلى الله عليه وسلم – رأى رجلاً يصلّي فخفّف صلاته، فسلّم على النبي – صلى الله عليه وسلم -، فقال: «ارجع فصلّ فإنك لم تصلّ»، فعل ذلك ثلاثًا، فعلّمه النبي - صلى الله عليه

وسلم – الطمأنينة في أفعال الصلاة. (رواه البخاري ومسلم).

وبالغفلة عن تذكّر صلاة الجماعة، يجرّ إلى التساهل في الجماعة، قال النبي – ﷺ –: «أثقل الصلاة على المنافقين: صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا» (رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة).

وبالغفلة عن ثواب الزكاة، والغفلة عن عقوبة مانعها، يكون التفريط في أدائها، ففي الحديث : «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته، إلا مثّل له يوم القيامة شجاعا أقرع يأخذ بلهزمتيه، فيقول: أنا كنزك، أنا مالك» (رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة). أي: صار هذا الكنز ثعباناً يمصّ شدقيه، ويفرغ فيه السمّ.

وبالغفلة عن تذكّر عقوبات عقوق الوالدين، يقترف الولد العقوق، فيحقّ عليه ما قال عليه النبي – صلى الله عليه وسلم –: «وثلاثة لا يدخلون الجنّة: العاقّ لوالديه، والديّوث، والرَّجِلة من النساء» (رواه النسائي والحاكم، وقال: "إسناده صحيح" عن ابن عمر). والديّوث: الذي يقرّ أهله على الزنا. والمتشبّهة بالرجال.

وبالغفلة عن عقوبة قطيعة الرحم، يقع الوعيد على القاطع، في حديث جبير بن مطعم – رضي الله عنه –، عن النبي – ﷺ – قال: «لا يدخل الجنة قاطع» (رواه البخاري).

وبالغفلة عن عقوبات الظلم، يكثر الظلم في الأرض، فيسفك الدم، ويؤخذ مال الغير، ويعتدى على الأعراض، ويصير العمران خرابًا، والأرض يبابًا، ويهلك الحرث والنسل، وينتشر الخوف، ثم تنزل العقوبة بالظالم، كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته»، وقرأ الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (رواه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى).

فالغفلة مفتاح شرور، ويحرم بها المسلم من كثير من الأجور، وما يدخل النقص على المسلم إلا من بابها، فالنجاة منها هي السعادة، والبعد عنها رقيٌّ في درجات العبادة، والحذر منها حصن من العقوبات في هذه الدنيا، وفوز بالنعيم بعد الممات.

ولا يكون الاعتصام من الغفلة والنجاة منها، إلا بالابتعاد عن أسبابها، وعدم الركون إلى الدنيا التي تغرّ المرء عن آخرته.

ومما يعين المسلم على تجنّب الغفلة:

١. المحافظة على الصلوات جماعةً، بخشوعٍ وحضور قلبٍ: فالصلاة تتضمّن حياة القلوب، لما فيها من المعاني العظيمة، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

٢. ومما ينجي من الغفلة: ذكر الله على كل حالٍ؛ فالذكر يحيي القلوب، ويطرد الشيطان، ويزكّي الروح، ويقوّي البدن على الطاعات، ويوقظ من نوم النسيان، ودوامه يحفظ العبد من المعاصي. عن أبي موسى – رضي الله عنه –، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: «مثل الذي يذكر ربّه، والذي لا يذكره مثل الحيّ والميّت» (رواه البخاري ومسلم).

٣. ومما يحفظ العبد من الغفلة: تلاوة القرآن؛ ففيه العجائب، وفيه الرغائب، وفيه شفاء القلوب، وفيه الحثّ على كلّ خيرٍ، والزجر عن كل شرٍّ، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]

٤. ومما يحفظ العبد من الغفلة: مجالسة العلماء والصالحين؛ لأنّهم يذكّرون بالله، ويعلّمون العلم الشرعي، قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف: ٢٨].

٥. ومما ينجي من الغفلة: الابتعاد عن مجالس اللهو والفسق وجليس السوء،

قال الله تعالى : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]. وفي الحديث: «ومثل جليس السوء كنافخ الكير».

٦. ومما ينجي من الغفلة: معرفة حقارة الدنيا وزوالها، وعدم الاغترار بزخرفها عن الآخرة؛ فهي التي صدّت أكثر الناس عن الآخرة، واتباع الهدى.

٧. ومما ينجي من الغفلة: مجانبة الذنوب والمعاصي؛ فكل معصية وقع فيها العبد كان ذلك بسبب الغفلة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١-٢٠٢].

٨. عباد الله: إنّ من أعظم ما يُنقذ المسلم من الغفلة وآثارها الضارّة: ذكر الموت وما بعده، فهو واعظٌ بليغٌ، مشاهدٌ مسموعٌ، يقينٌ طعمه، قريبٌ لقاؤه، واقعٌ أمره.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: «أكثروا من ذكر هازم اللذّات» – يعني: الموت – (رواه الترمذي، وقال: "حديث حسن").

ومن أكثر من ذكر الموت صلح قلبه، وزكا عمله، وسلم من الغفلة، وعند الموت يفرح المؤمن، ويندم الفاجر ويتمنى الرجعة، وهيهات أن يستجاب له، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، وعمر الإنسان ما مضى في الطاعات، وما مضى في المعاصي فهو خسارة عمره.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

***